مملكة السامرة 880 ـ 721 ق.م

عبد الله حورية

لقد صادفت أثناء جمعي لمادة أطروحتي للماجستير في تاريخ الشرق القديم «التوسع الأشوري في بلاد الشام» مادة تستهويني وتدفعني للكتابة، لكن انشغالي بتحرير الأطروحة كان يحول دون ذلك، ومن بين المواضيع التي استهوتني مملكة السامرة في فلسطين التي كانت على صلة بموضوع بحثي، ارتأيت بعد فراغي من تحرير الأطروحة أن أكتب فيها.

تعرف السامرة بالعبرانية بـ : شوميرون وسكانها: شوميرونيم، وهو اسم مشتق من شوميرون (Someron) (برج المراقبـــــة؟) أو من اسم قديم جدا Someron أو Some-Rajin وفق ما ورد في سفر الملوك [1].

أما الترجمة الأشورية Somerina والصيغة الأرامية Some-Rajin ، فهي تدلّ على مدينة قديمة تقع وسط فلسطين في البلاد التابعة لسبط إفرائيم بن يوسف [2]، على بعد ستة أميال شمال غرب شكيم (نابلس).

بنى مدينة السامرة عمري* Omri [3] (885 ـ 874 ق.م) في سنة 880 ق.م، وهو سادس ملوك بني إسرائيل بعد أن حكم ست سنوات في ترصة (Thersa) [4] عـــــــلى جبل السامرة الذي اشتراه بالفضة من شامر بوزنتين وأطلق على المدينة اسم السامرة نسبة إلى شامر صاحب الجبل [5]، وجعلها عاصمة لمملكة إسرائيل. كانت من المدن النادرة التي بناها بنو إسرائيل، بحيث تحتل مكانا استراتيجيا هاما من الناحية العسكرية والإقتصادية.

ومن أشهر ملوك إسرائيل الملك أخـــاب (Achab) 874 ـ 852ق.م الذي قام ببناء عدة منشآت ووطّد النظام الإداري في السامرة. وفي عهده حاصرها

السوريون مرتين [6]. في المرة الأولى استعمل ملك آرام بن حدد 879 ـ 843ق.م (Benhadad) كل جيشه وما يملك من خيل وعربات، وحاصرها وحاربها، إلا أنه انهزم ولم يتمكن منها، وأعاد الكرة مرة أخرى وضغط على آخاب وحاصره في عاصمته (السامرة)، وفي الأخير استطاع آخاب أن يتغلب على الإراميين وعقد معهم معاهدة مفادها أن يعيد ملك دمشق لإسرائيل المدن [7] التي أخذها أبوه من أب ملك إسرائيل، وأن يفتح لنفسه أسواقا في دمشق.

وتحالف آخاب مع مملكة دمشق ضد الهجوم الأشوري في معركة قرقر، التي لم تكن حاسمة [8] وحدث نزاع في عهده بين عبادة بعل وعبادة يهوه * Yahweh * [9] ولما استولى ياهو على العرش في سنة 842 ق.م أعاد عبادة «يهوه» في أواسط السامرة [10]. وكانت حروبه الخارجية فاشلة والدليل على ذلك ما جاء في المسلّة السوداء التي أقامها شلمناصر الثالث. تبين أنه كان يقبل الأرض عند قدمي الملك الأشوري ويقدم له الجزية المتمثلة في أواني من الفضة والذهب والرصاص [11].

والجدير بالملاحظة أن الحروب كانت متبادلة بين الطرفين إلاّ أن أشور نجحت في سياستها المتمثلة في تجزئة المملكة التي أصبح يشرف على إدارتها إشرافا مباشراً موظفون أشوريون بعدما كانوا يعينون الحاكم التابع للنظام المركزي في أشور.

وفي سنة 724 ق.م حاصرها شلمناصر الخامس (Salamanasar) 726 ـ 722 ق.م [12] ونستطيع أن نقول بأن ثلاث سنوات من الحصار تعتبر فترة طويلة بالنسبة لإمكانيات المدينة.

انتهت مدينة السامرة بالسقوط في سنة 721 ق.م، في بداية حكم سرجون الثاني أي بعد موت شلمناصر الخامس بقليل، وهو ما تؤكده حوليات سرجون الثاني «استوليت في السنة الأولى من ملكي على مدينة السامرة ونقلت منها 27.290 شخص، وأخذت عراباتهم وأضفتها لجيشي وفرضت عليهم الجزية...»

سبى سرجون الثاني الإسرائيليين إلى أشور ووضعهم في كالخ (Khalakh) [13] وخابور ونهر قوزان (Gozân) وفي مدن ميديا [14].

وإذا حاولنا أن نقارن ما ورد في النقوش وما ورد في الكتاب المقدس نجد

علاقة وطيدة، على سبيل المثال ما توصلت إليه حفريات نمرود يتطابق مع ما ورد في الكتاب المقدس، وهو ما يتضح من النقش التالي: «خلال التوسع الأشوري حاصر شرجون الثاني السامرة، وكان عدد سكانها 27.290نسمة، نفي بعضهم وبقي البعض، حيث فرض عليهم الجزية، ونهب من المدينة ما مقداره خمسين مركبة، واستباح المدينة لجنده.» [15]. وما ورد في الكتاب المقدس: «استولى ملك أشور على البلد كله، تقدم نحو السامرة وحاصرها لمدة ثلاث سنوات، في السنة التاسعة من حكم عزية استولى ملك أشور على السامرة وسبى الإسرائيليين إلى أشور وأقامهم في كالخ وعلى شاطئ الخابور ونهر قوزان وفي مدن ميديا. [16]

نستنتج مما سبق بأن النصين متطابقين، وأن المدينة قد احتلت وأفرغت من سكانها، وتم إبعاد القوى الحيّة من الأمة وعوّضت بإحضار شعوب أخرى، جيئ بها من مناطق نائية خاضعة لأشور [17].

استقرت في مملكة السامرة الجديدة أرستقراطية أجنبية قدمت من بابل ومن كوثه (Kutha) ومن حماة (Hamath) ومن بلدان أخرى غير معروفة [18]، وجاءت هذه العناصر الأجنبية بعاداتها وديانتها الخاصة، لكنها اندمجت شيئا فشيئا بالشعب الإسرائيلي الذي بقي في البلاد. كما تحمّلت السامرة في عهد سرجون الثاني على كاهلها دفع جزية ثقيلة مثل ما فعلت يهودا وجيرانها فلسطيا (Philistic) وعمون (Ammon) ومؤاب (Maab) وأدوم إلى أن تلاشت، وأصبحت مملكة يهودا معرضة لهجومات مباشرة من قبل أشور [19].

لكننا نجد خلافا بين المؤرخين، بين من يرى أن ملك أشور لم يتسبب في سبي كل أهالي السامرة بل ترك البعض منهم فاختلطوا بالأقوام الذين أتى بهم إلى السامرة وأسكنهم بها فتشكل منهم شعب السامريين الذين أشرنا إليهم أعلاه. وتبيّن أغلبية المؤرخين الذين استخلصوا من التوراة أن شلمناصر سبي جميع الإسرائيليين من السامرة وأن اسرحدون (Assur-aha-iddin) عمّرها بأقوام غرباء استقدمهم من بابل وغيرها. وهؤلاء القوم كانوا يعبدون الأوثان، ومما يؤكد هذا الرأي أن [20] السامريين كانوا يجهلون ديانة آل إسرائيل فطلبوا من ملك أشور أن يبعث لهم بكاهن إسرائيلي من الذين سباهم ليقيم بينهم ويعلمهم ديانة آل

إسرائيل، وكان السامريون يودون التقرب من الإسرائليين، ويدعون أن ديانتهم واحدة، ولذلك عند رجوع الإسرائليين من سبي بابل عرضوا عليهم مساعدتهم لإرجاع الهيكل فرفض الإسرائليون، فكان ذلك سببا في العدوان بينهم بداية من سنة 535 ق.م التي تؤدي إلى ما يعرف في التاريخ بالسبي البابلي أو السبي الثاني (21).

نستنتج مما سبق أن هناك نوعين من المصادر تتعرض لدراسة مملكة السامرة وهي المصادر اليهودية والعربية. فإذا كانت المصادر اليهودية تشير إلى أن السامريين كانوا يتمتعون بفكر راقي ويمتازون بالقوة، وتوجه الطعون إلى الأشوريين مثيرة قضية السبي جاعلة الهدف منه تحطيم وطنية الشعوب الراضخة ومحو جذورها، وتذكر محاولة ملوك أشور تحقيق فكرة الامبراطورية العالمية وسيادتهم على الشعوب. وغرض هذه المصادر من ذلك هو محاولة الوصول إلى إثبات فكرة «أرض الميعاد» بدعوى العودة إلى الوطن الأم «أرض الميعاد» بعد التعرض إلى السبي من طرف الأشوريين.

أما المصادر العربية ولها وجهة نظر أخرى وهي تتطابق مع المعطيات الأثرية، فإن السامريين كانوا ضعفاء خاضعين للأشوريين والدليل على ذلك ما كان يدفعه ملوك إسرائيل إلى أشور، والخضوع لها عبر مراحل طويلة من تاريخ السامريين.

ومن ثم إذا سلمنا بأن الأشوريين عاملوا أهل السامرة بفظاظة ووحشية فقد يعود ذلك إلى تفوّق أسلحتهم وتطوّر أنظمتهم، فمن البديهي أن يتطلعوا إلى فكرة تحقيق الأمبراطورية العالمية.

هوامش

(1) سفر الملوك الأول، 16 ـ 24.

(2) الموسوعة الأثرية العالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص 566.

(3) Dictionnaire encyclopédique de la bille, édit brepols Turnhout, Paris 1960, p.1672.

(*) عمري إسم لأربعة أشخاص أهمهم عمري الملك السادس لإسرائيل (885 ـ 874 ق.م) مؤسس السلالة الرابعة.

(4) سفر الملوك الأول 16 ـ 24.

(5) نفسه، 16 ـ 23 ـ 24.

(6) Maspero (G.) Histoire Ancienne des peuples de l'orient, Hachette, Paris 1905, 433.

نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، (6 أجزاء) الجزء الثالث طبعة، دار المعارف القاهرة 1964، ص. 361، سفر الملوك الثاني، 6.

(7) نفسه، ص. 362.

(8) فليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة بيروت 1958، ص. 179.

(*) معركة قرقر 853 ق.م كان يتزعمها الملك الأشوري شلمناصر الثالث. وكان تحالف الملوك السوريين يضع اثنى عشر ملكا، يرأسهم «بن حداد».

(9) Parrot (André), samaric capitale du royaume d'Israel Nenchatel, Paris, 1955, P.65.

(**) تزوج آخاب «إيزابل» إبنة اثبعل ملك صور وصيدا، فسيطرت على زوجها وفرضت عبادة بعل صور على إسرائيل. أدى ذلك إلى نزاع طويل بين عبادة بعل، وعبادة يهوه، أنظر:

Israel et le Judaïsme dans l'ancien orient, Buysschaert (G) Edit Beryaert 1953, PP 185-190.

(10) البستاني (بطرس)، دائرة المعارف، المجلد التاسع، طبعة بيروت 1887، ص. 407.

(11) فليب حتى، المرجع السابق، ص. 211.

(*) للمزيد من المعلومات أنظر

Brion (Marcel); la Résurrection des villes mortes payer, paris 1948, p. 179.

(12) محمد عزه دروزة، تاريخ إسرائيل من أسفارهم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت بدون تاريخ، ص. 207.

(13) Yirku (Anton), Le monde de la bible, Trad lilly yumel, édit correa Buchet chastel, Paris 1958, p.87.

Rops (Daniel) Histoire sainte, Paris 1943, p.49; Vierye (Maurice), Les Assyriens, édit du seuil 1961, P.53; Barrois (A.G.); précis d'Archélogie biblique, bibliothèque catholique; 1935; PP.37-47.

(14) Parrot (André), op.cit, P.36; André et René Neher, Histoire biblique du peuple d'Israel, Paris 1962, P.475.

(15) نسيب وهيبه الخازن، من الساميين إلى العرب، مكتبة الحياة، بيروت بدون تاريخ، ص. 132.